الكتاب المقدَّس والكنيسة

د. نقولا أبو مراد

أستاذ مادّة الكتاب المقدّس في جامعة البلمند

في رتبة رسامة الأساقفة في كنيستي، يوضع الكتاب الذي يحوي قراءات الإنجيل اليوميّة الطقسيّة مفتوحًا على رأس المرشّح، وهو ساجد إلى الأرض. وتُتلى عبارات تذكّر مَن يوشك على أن يعيّن رقيبًا على التعليم في الكنيسة وعلى أحوالها أنّ كلمة إنجيل المسيح إنّما تبقى منارته والأمانة المسلّمة إليه إلى أن يشاء إلهه أن يسترجعها، بعد أن تكون قد فعلت فعلها، على ما يقول النبيّ إشعيا، ذلك أنّها لا تعود إلى الله فارغة أو لا ينبغي لها.

ويبقى الكتاب الطقسيّ مرافقًا للأسقف في الخدم، فلا يأتي القدّاسَ إلاّ والكتاب مرفوعًا أمامه في الدخول الأوّل، الذي كان، تاريخيًّا، لحظة دخول الأسقف مع حاشيته من الشمامسة والكهنة والمؤمنين إلى الكنيسة للاحتفال بعشاء الربّ. يسير الشمّاس رافعًا الكتاب والأسقف خلفه، ويمضي الموكب إلى هيكل الكنيسة ليضع الأسقف الإنجيل على المائدة وسط الجميع ويرتّلوا: "قدّوس، قدوّس، قدّوس"، وكأنّ الكتاب هو سيّد إشعيا الجالس على العرش، يدعو النبيّ إلى التكلّم باسمه، معلنًا الدينونة على مَن "يسمعون سمعًا ولا يفهمون، وينظرون نظرًا ولا يبصرون".

بعد الترنيم الملائكيّ تتلى القراءات الكتابيّة، ويعظ الأسقف، ثمّ تُغلق الأبواب ليلبث في الكنيسة مَن كان يعي أنّ "مَن يتقدّم إلى جسد الربّ ودمه من غير استحقاق إنّما يأخذ دينونة لنفسه". موقع الكتاب الديّان هذا تمثّله جداريّات قديمة من القرن الرابع وما بعده على أعلى حنيّة الكنائس، تصوّر عرشًا يتربّع عليه درْجٌ ملفوف، هو الكتاب. لم يغب الدرْج عن هذه الجداريّات إلاّ ابتداءً من القرن الثامن، بعد انتصار المدافعين عن الأيقونات، حين بدأوا يصوّرون الضابط الكلّ متأنّسًا، على ما جاء عند يوحنّا الدمشقيّ.

في تقديري إنّ ما سلف يعبّر بعمق عن مكانة الكتاب في الكنيسة منذ العصور الأولى، وذلك لأنّ جماعة المؤمنين تجد نفسها تتشكّل على أسس الكتاب، كتاب الله. وهذا ما يأتي واضحًا عند الرسول بولس الذي يشدّد لتيموثاوس على أنّ "كلّ الكتاب موحى به من الله، وهو للتعليم والتوبيخ والتقويم والتأديب الذي في البرّ، لكي يكون إنسان الله كاملاً متأهّبًا لكل عمل صالح" (٢ تم ٣: ١٦-١٧). بعد ذلك يدعو بولس أسقفه الشابّ إلى "الوعظ بكلمة الله بمناسبة أو غير مناسبة، فسيأتي وقت لن يطيق فيه الناس سماع التعليم الصحيح بسبب شهواتهم". لا نعجبنّ من ذلك، إذ هكذا تبقى الكلمة ديّانة جالسة على العرش. في غلاطية يخطّ الرسول "إنجيل المسيح الواحد" غير المحرّف ليصير خطًّا فاصلاً ما بين الذين يؤمنون والمبسولين إلى خارج بسبب تعليمهم الخاطئ. في نهاية الرسالة يعلن بولس أنّ ما كتبه إنّما هو قانون: "سلام ورحمة على الذي يسلكون بحسبه" (غل ٦: ١٦). هنا وثمّة في رسائله يوصي الرسول بأن تقرأ رسائله أمام الجماعة أو على الكنيسة، وكأنّه يعي تمامًا أنّ ما دوّنه من كلمات تصنع هذه الجماعة وتحوّلها من كتلة أناس مشدودين إلى شهواتهم

إلى ساعين لامتلاك روح الله المحيي.

ما من شكّ في أنّ رسول الأمم قرأ في حزقيّال أنّ هذا الروح عينه هو الذي دفع إلى النبيّ بدرْج وأمره بأن يأكله ليشعر هذا "بمرارة في فمه، وحلاوة في جوفه". أهي مرارة الكلمة المؤدّبة والمقوّمة، وحلاوة المصير حين تقبل؟ لعلّ الروح عينه الذي وضع الكتاب في جوف حزقيّال هو الذي أمره بأن يتنبّأ على العظام فيحييها، أي أن ينطق بما في جوفه، حاثًّا مَن كان نظيرَ الميت على أن يحيا بنعمة الله. بعد أن تحيا العظام اليابسة المتبعثرة، تتحوّل إلى جماعة وشعب عظيم، يطلب الله لها راعيًا على رتبة داود، يرعاها، "فيسلكون في أحكامي، ويحفظون فرائضي ويعملون بها" (حز ٣٧: ٢٤). في حزقيّال حركيّة سقوط وخلاص، يستهلّه مقطع العظام اليابسة، ويكتمل في بناء المسكن الذي الله في وسطه، جماعته متحلّقة حوله في مدينة قوامها وجود الربّ فيها. في سفر الخروج، في الفصل ٣٢، بعد خطيئة العجل الذهبيّ، يطلب موسى من الله أن يغفر خطيئة الشعب أو أن يمحوه من كتابه الذي كتب، فيجيبه الربّ: "مَن أخطأ، هذا أمحوه من **كتابي**" (خر ٣٢: ٣٣). تلك هي المرّة الأولى التي يرد فيها ذكر الكتاب في العهد القديم، مسمًّى "كتاب الله" أو "الكتاب الذي خطّه الله". المقصود هنا ليس أنّ الله هو الذي كتب بالمعنى الحرفيّ، إنّما أنّ المكتوب فيه لله، يُبقي فيه مَن يشاء ويقصي مَن يشاء، بمعنى أنّ الذين يمكثون ضمن دفّتَيه، إذا صحّ التعبير، لا يمكن أن يكونوا من غير الأمناء لوصايا الله وأحكامه.

والحقّ أنّ قارئ الكتاب يلاحظ أنّ ثمّة مسيرة للناس في الكتاب، مسيرة من آدم العاصي إلى الجالسين على الكراسي في حضرة الله وحمله المذبوح يدينون الأمم والشعوب. مسيرة طويلة تعبر كتبًا وأنبياء ومعلّمين، وتمرّ في آلام يسوع وقيامته. لا شيء قبل السقوط إلاّ الله الخالق على أحسن وجه، ولا شيء بعد انتصار الحمل الذبيح إلاّه راجعًا سريعًا لإقرار سيادته على العالم. الجماعة أو الكنيسة ما بين رفعة الله ورفعة الحمل، تنتقل من حالة آدم الساقط، وقايين القاتل، وأهل بابل المستكبرين، ويعقوب المتمرّد المخادع، والملكيّة السكرى بمجدها، إلى وداعة عبد الربّ يسوع المصلوب، إلى شهادة بالدم يؤدّيها مضطهَدو إمبراطوريّات الناس، شهادة أبديّة لقاتل الوحش، الحمل الوديع الجالس على عرش الربّ مذبوحًا أيقونة للمتحلّقين حوله. يوحي آدم وقايين والجبابرة أبناء الآلهة والبشر وأهل بابل بتشتّت الجماعة إذا ما شردت عن مسالك الله، والكتاب يحتّم شرودها. لا مسلك للجماعة إلاّ مسلك أخنوخ ونوح وإبراهيم الأبرار الذين ساروا مع الله ولم يوجدوا بين الناس، على ما يقول الكتاب؛ فجماعة مؤلّفة من أمثال أخنوخ ونوح وإبراهيم دعوة لا واقع محقّق إلاّ بقوّة الله وروحه.

يسير إبراهيم مسيرة الكتاب، فيخرج من جماعة مشتّتة، لا لغة لها، تدين بدين الكذب، ويمضي إلى عبادة الربّ وحده والسجود له. يصير إبراهيم المؤمن، من غير أن يرى، "أبًا لكثيرين" غير موجودين. نفهم من متّى أنّ أبوّة إبرهيم لم تتحقّق إلاّ في يسوع الذي ولد من مريم العذراء. هذا هو البكر الذي يفتتح البنوّة لله للذين يلبسونه، كما يقول بولس إلى الغلاطيّين.

بين آدم ومشهد الاحتفال بذبيحة حمل الله يسير الناس من تجمّعات بشر، مسالكهم بشريّة، وأهواؤهم بشريّة، منقسمين، متحاربين، لأنّ لا لغة واحدة عندهم، إلى إلفة الروح، إلى حال واحدة، حال الشهادة لَمن لأجلهم مات على الصليب. تلك هي الكنيسة. ومسيرتها في الكتاب الذي يحذّرنا سفر الرؤيا من أن نزيد عليه أو ننقص منه شيئًا لئلاّ يزيد علينا الله الضربات، أو يحذف أسماءنا من سفر المدعوّين إلى عرس الحمل. تعبر الكنيسة في الكتاب مسيرتها تلك، علّها تفوز، والفوز في الرؤيا لقليلين، وهو فيها، كما الحمل الذبيح في وسط الجامعة الشاهدة، والتي، وإن كانت قليلة، إلاّ أنّها تغدو الدنيا كلّها.

والعلاقة ما بين تلك الجماعة في مسيرتها، من سقوط آدم إلى فوز الشهود، علاقة حتمًا تفسيريّة. غير أنّ التفسير في هذه العلاقة ليس دومًا تفسير الجماعة للكتاب، بل الكتاب

في أحيـان كثيرة يقرأ الجماعة. فالموقف الـذي يعتبر الكتـاب موضوعًا للتفسير والكنيسـة فاعـل التفسـير موقـف فيه تعـال. إذا مـا أخذنا المسـيرة المذكورة في الاعتبـار يكـون الكتـاب هو الذي يفسّـر الكنيسة، ويأخذها في رحلة فيه تتأرجح بين فهم وعدمـه، ليغدو النصّ قـارئ الكنيسـة في تعرّجاتهـا إن هـي آمنت أو عصت، سقطت أو انتصرت. والتفسـير الـذي أتحدّث عنـه هنا ليس مجرّد الجهـد الذهنيّ لفهم هـذا أو ذاك مـن المقاطـع بمنهـج منظّم علمـيّ قائم على قواعد، بل المقصـود بالتفسير مآله المطلق، أي ترجمة الكتاب إلى معيوشيّة حقّة. خصيّ فيليبس اعتمد؛ بعد أن تمّ له تفسير الكتـاب، جاء الفهم الحقيقيّ في الالتزام. إذا صحّ هذا تكون الكنيسة في الكتاب في فهم له إذا ما عاشته، وينعدم هذا الفهم في تمرّدها. في أسفار الحكمة تمييـز بـين الجاهـل الشرّيـر والعارف الصالح. الجهل والمعرفـة هنا مسلكيّان لا معرفيّـان أو إبيستيمولوجيّـان. لا أرى هنـا كيـف تكـون هـذه الجماعة سلطـة مفسّـرة للكتـاب وهـي تحت سلطتـه. حتمًـا إذا مـا أخذنـا المنحى العقائديّ يقول قائـل إنّ الكنيسة تحفظ العقيـدة بتفسير صحيـح للكتاب، غير أنّ السلـوك أبعد من العقيـدة وأعمق، ونحن في السلوك تحـت سلطان ولسنا أصحاب سلطان.

تبقى صـورة الأسقف ساجدًا تحت الكتاب الإلهيّ وسائرًا خلفه مبدأ فساريًّا (herméneutique). الـتـفسيـر أن تَرعـى وتُرعى، وليس من قبيل المصادفة أن يشتقّ فعل التفسـير من اليونانية، من الجـذر الذي يشـير إلى رعايـة الأغنام. **الراعـي هرماس**، كتاب جـاء في القانون أحيانًـا، يجعـل مـن الكتـاب مسلـكًا للكنيسة في حياتهـا. أن تفسّـر يعني أن ترعـى، وأن تفسَّـر يعنـي أن تُرعى، أن تسير وراء السائرين خلف الدرْج الإلهيّ للمشاركة في عرس الختن.